الفصل الأول

مصادر دراسة الحضارة الإسلامية

- القرآن الكريم
- السنة النبوية
- المصادر المكتوبة
- المصادر الأثرية

القرآن الكريم

القـرآن الكريم هو التنزيل المحكم الذى انتظمت فيه القوانين، وقررت بواسـطته القواعد التى انضبط بها سلوك المجتمع الإسلامى والأمة الإسلامية جميعاً، ووفق تلك القوانين والقواعد أقام المسـلمون دولتهم وشـيدوا حضارتهم، وفى هذا الإطار نشـأت وتطورت نظمهم السياسـية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعسـكرية، ومن هنا فـإن القرآن الكريم هو المصدر الأول الذى اسـتقت منه الحضارة الإسـلامية فى كافة مجالاتها أصولها ومقوماتها وخصائصها.

قال تعالى فى سـورة البقـرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة].

وقال تبارك أسماؤه ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ۝٣٨﴾ [الأنعام]

وفيه وجد المسـلمون كل ما يحتاجون إليه فى تنظيم دولتهم وإدارة شـئونها وبناء مجتمعهـم وتحديـد علاقة الأفراد بالدولة وعلاقة الدولـة برعاياها، وفى هذا يتجلى الإحكام الإلهى لكل نواحى الحياة الإنسـانية وتنظيم جوانبها، فالإسلام يحترم عقل الإنسـان، ويكرم الجانب الروحى فيه، كما يهتم بجوانب الحياة البشـرية ويسـمو بمبادئها تأكيداً لنص الآية الكريمة ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ۝٧٢﴾ [الأحزاب].

إن الوحـى الذى تنزل على رسـول الله ﷺ منجما فى مكـة والمدينة، اكتمل يوم أكمل الله للمسلمين دينهم، وأتم عليهم نعمته وارتضى لهم الإسلام دينا، فأصبح بذلك الدستور الذى يتبعه المسلمون ويطبقون أحكامه وتعاليمه.

كمـا أن الوحـى الـذى بلغه محمـد ﷺ كاملا غـير منقوص لم يتغـير أو يتبدل ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]. وهو بذلك يتميز على كتب الديانات الأخرى التى تناولتها أيدى الكتاب والمؤلفين والمترجمين بالحذف والإضافة والتعديل والتحريف والتصحيف.

القـرآن الكريـم إذن هو كلمة الله، وهو معجزة محمد بن عبد الله التى خاطب بها العالمين هداية ورحمة وبشـرى لهم. والقرآن الكريم هو الرسـالة الخاتمة التى ترسـم للإنسـان طريـق حياته فى الدنيـا والآخرة، وهو فى ذات الوقت يكرمه على سـائر المخلوقات؛ فهو الخليفة فى الأرض ليعمرها ويفيد منها، وهو المستخلف فى الأموال يكـدح لإنمائهـا وتزكيتها وإنفاقها من أجل رفاهيته فـى الحياة الدنيا، وعملا يمهد له طريق السـعادة فى الآخرة، وهو الأمين على رسـالة ربه يحفظها من غير تبديل أو تغيير، يعمل بها ويدعو لها من أجل هداية البشر ورخاء الإنسانية.

لقد هيأ الإسـلام للعقلية الإسـلامية المناخ الحر للتفكير والخلق والإبداع، ومن هنا كان علماء المسـلمين عربيهم وأعجميهم، أسـودهم وأبيضهـم، يبدعون فيما أنتجوا من فكر وأدب وسياسـة واجتماع واقتصاد وفلسـفة وأخلاق وعلوم وفنون وفقه وأصول.

والإسـلام يُقعِّد للقوانين التى تضبط سـلوك الفرد وسلوك الجماعة فى وقت السلم ووقت الحرب سـواء بسـواء، ويضمن العدالة لكل من يحيا فى ظل هذا الدين مسلما كان أو ذميا، كما ينظم القرآن الكريم أصول المعاملات وآدابها ليظل دائما النبع الذى يستمد منه المسلمون أساليب حياتهم وأصول نظمهم.

والإسـلام كما حددت أصوله وأسـسـه وقواعده فى القرآن الكريم وكما ظهر تطبيقا فى سـنة النبى ﷺ وصحابته، دين ودولة، بلغ الرسـول ﷺ الرسالة كما أوحى بها إليه لم يكتم منها شـيئا، وعلى هديها أقام المسـلمون دولة الإسلام فى المدينة، وعن القرآن الكريم انبثقت كل الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التى عرفتها دولة الإسـلام الشابة فى المدينة، وفيها ولدت وترعرعت وتطورت ثم عاشت على مر العصور والأجيال تشع نور الحضارة الإسلامية فى الآفاق.

وطبق المسـلمون نظريات القرآن الكريم فى الحكم والسياسة كما طبقوها فيما يتعلق بالإدارة وتنظيمها، وانتقلت هذه الأسـس وتلك القوانـين والنظريات لينتقل التطبيق الإسلامى إلى خارج شبه الجزيرة العربية؛ لتتأكد بذلك صلاحية تلك النظم والقوانين لكل زمان ومكان.

وتنفرد الحضارة الإسلامية بين كل الحضارات باستقاء نظمها وتشريعاتها وقوانينها من القرآن الكريم، الكتاب السماوى الأوحد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذى سيظل دائما المنبع الذى تستمد منه الحضارة الإسلامية حيويتها، وتجدد بالعودة إليه شبابها وقوتها كلما أحست بحاجة أو عُنّت لها قضية أو مسألة من قضايا ومسائل الدين والدنيا. وفى هذا يقول السرخسى: إن مرجع الناس فى أمر دينهم ودنياهم كتاب الله وسنة رسوله، فإن اشتبه عليهم أمر من الأمور رجعوا إلى الخلفاء وفقهاء الصحابة، واستخاروا الله فيه واستظهروا باجتهادهم رأيا وعملوا به، وقد كانوا لا يكتبون أقوال النبى وفتاوى الصحابة خشية أن يجرهم الاعتماد على الكتب إلى إهمال حفظ القرآن الكريم والسنة، ولأن الكتاب عرضة للضياع والتصحيف والتحريف. ولما تعددت المذاهب وكثرت الأقوال والفتاوى والرجوع فيها إلى الرجال والرؤساء، ومات أكثر الصحابة خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم ويتركوا سنة رسول الله ﷺ فدونوا الحديث [1].

القرآن الكريم على هذا هو الأصل والمصدر تشرحه السنة النبوية الشريفة وتوضح ما يصعب على المسلمين فهمه، ومن ثم كانت السنة هى المصدر الثانى من مصادر الحضارة الإسلامية وما قدمته من نظم، فقد كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين وقاضيهم وقائدهم ومعلمهم ومربيهم، وفوق هذا كان نبيهم الذى بلّغهم رسالة ربه كما أوحى بها إليه.

السنة النبوية

السنة النبوية الشريفة توضح للإنسان المسلم وللأمة الإسلامية جميعا دين الإسلام، وتعمق فهم المسلمين للأصول والأسس التى وضعها الإسلام وجاء بها القرآن الكريم. ولقد علّم النبى ﷺ المسلمين أمور دينهم وأمور دنياهم، وكانت أقواله وأفعاله تطبيقا عمليا كما أراد لهم أن يتعلموه وأن يطبقوه، فالرسول ﷺ أدبه ربه فأحسن تأديبه، وكان يوحى إليه فما ينطق عن الهوى، وكان يربى جيلا وينشىء أمة لتعى الإسلام وتعمل به وتحافظ عليه. والرسول ﷺ كما عاش بين المسلمين كان قدوة، وعلى

(١) انظر محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية جـ٢ ص ٥.

هديه ووفق سنته سار المسلمون الأولون وتبعهم التابعون والمسلمون من بعدهم. كان قدوة فى حياته الخاصة والعامة، فكان ﷺ فى بيته الأب الرحيم والزوج المخلص، علم أهل بيته آداب الدنيا وطبقوها كما كان ينبغى لهم أن يفعلوا، وكانت أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن يسهمن فى تعليم المسلمين، وعلى يدى عائشة رضى الله عنها تعلم رواة الحديث فى المدينة الدين وعلموه من بعد ذلك للأجيال من أبناء الأمة الإسلامية.

لقد كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها المرجع الأول فى الحديث والسنة وعنها أخذ المسلمون نصف دينهم، وفيها قال الإمام الزهرى: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبى ﷺ وعلم جميع الناس لكان علم عائشة رضى الله عنها أفضل، وتقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن: إن عائشة قد تركت أعمق الأثر فى الحياة الفقهية والسياسية للمسلمين [1].

وكان سلوكه ﷺ بين إخوانه وأهله تعليما للمسلمين. فقد كان مسجده فى المدينة المدرسة التى تعلم فيها المسلمون أصول الدين وأسس الحكم والسياسة ونظريات المعاملات والاقتصاد والحرب وقواعده واستراتيجيته، كما تعلموا فنون السلم والمسالمة.

وقد نص القرآن الكريم على ضرورة اتباع الرسول ﷺ وطاعته ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر] . ومن هنا كانت أهمية السنة النبوية الشريفة بالنسبة للمسلمين.

وإلى رسول الله ﷺ يلجأ المسلمون فيما ينشب بينهم من خلاف: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء] .

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء] .

---

(١) عائشة عبد الرحمن: نساء النبى. ص ١٠٣.

وكما يعتبر الفقهاء السنة النبوية الشريفة مصدرا أصليا من مصادر التشريع فإن المؤرخين يتخذونها مصدرا أوليا من مصادر الحضارة الإسلامية، فقد أقام رسول الله ﷺ الدولة الإسلامية فى المدينة واضعا اللبنات الأولى لنظم الحكم والإدارة والاقتصاد والجهاد فى الإسلام، فقد انتقل رسول الله ﷺ إلى المدينة عام ١ هـ/ ٦٢٢ م ليؤسس الدولة الإسلامية وليتخذ منها عاصمة للدولة الناشئة فى شبه الجزيرة العربية، ومن هنا كانت مدينة رسول الله ﷺ المركز الأول للحضارة الإسلامية؛ فيه ولدت ونمت واكتملت وصقلت ثم خرجت مع المسلمين الفاتحين لتبعث نورها فى الآفاق ولتؤثر فى كل مكان وصلت إليه بمفاهيمها وقيمها الجديدة.

وفى مدينة رسول الله ﷺ العاصمة الأولى للدولة الإسلامية كان مولد الأمة التى آخى فيها رسول الله بين المهاجرين والأنصار، وأسس مسجده ليكون المركز الذى تقرر فيه الأمة أمورها، وأصدر الصحيفة التى تعد أول دستور مكتوب يعرفه العالم، ذلك الدستور الذى اعترف بغير المسلمين من اليهود وغيرهم ليكونوا أعضاء تشملهم رعاية الدولة الإسلامية وتكفل لهم حرية العقيدة، وحرية العيش، ولهم حق الحماية والأمان ماداموا يعيشون فى كنف المسلمين، كما اعترف لهم ذلك الدستور بحريتهم الاقتصادية مما يؤكد على أن الإسلام دين سماحة وعدل، وأن المسلمين يرعون ذمة الله فى خلقه ويحترمون الآخرين ويقدرون حرية الأديان وحرية أصحابها.

لقد اعترف الإسلام بالمسيحية دينا سماويا، وعرف لعيسى قدره ومكانته، ووضع مريم ابنة عمران موضعا لم تحظ به حتى عند المسيحيين ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران] كما اعترف باليهودية وكتابها الذى تنزل على موسى، ولم يغمطه حقه، بل إن الإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر قاعدة أصيلة عند المسلمين.

لقد خرجت الأمة الإسلامية مجاهدة فى سبيل الله حاملة راية الإسلام وبين يديها مقومات الحضارة الإسلامية مطبقة فى سلوك الأمة وآدابها ومعاملاتها وسلمها وحربها.

وفى المدينة المنورة تعلم المسلمون من النبى ﷺ ما علّموهُ للأجيال من بعدهم؛ فقد تعلمـوا دقائق العقيـدة وتفصيلاتها، كما تعلموا أصول الحكم والسياسـة، وكان على الجيل الأول من المسـلمين مسئولية إيصال هذه الرسالة الحضارية التى اخضرَّ عودها فى المدينة وقد أوفوا وصدقوا فيما ائتمنوا عليه. وقد أثبت هذا الجيل من رجال الأمة الإسـلامية قوة عود الدين الجديد الذى اسـتطاع أن يفرض سيادته الحضارية فكريا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا فى حركة مد جارفة انحسرت أمامها كل المفاهيم والقيم القديمة. وعلى أكتاف هؤلاء القادة قراء ومفسـرين ولغويين وفقهاء ومجاهدين ارتفعت كلمة الإسلام، ومنهم استمدت الدولة الإسلامية عناصر قوتها وشبابها وحيويتها.

ولما كانت الحضارة الإسـلامية ترتبط بالرخاء والاسـتقرار، فقد نتج عن اسـتقرار المسلمين فى المدينة أن تألف مجتمع جديد متناسق، أذاب الرسول ﷺ كل خلافاته، وعاش المهاجرون والأنصار يعملون معاً ليصلوا بالحضارة الإسـلامية فى مهدها الأول إلى مستوى من التفوق سجله المؤرخون والكتّاب.

إن الحضارة الإسلامية بنظمها الجديدة التى عرفها العالم لأول مرة استطاعت فى ظل الإسلام أن تثبت قدرة أبناء الأمة الإسلامية على الخلق والإبداع والاستمرارية، ولقد سار الخلفاء الراشدون على النهج الذى رسمه رسول الله ﷺ يطبقون القوانين والأحكام التى احتواها كتاب الله ويحيون سنة رسول الله ﷺ ويعمقون المفاهيم والقيم الإسلامية ويواجهون مطالب الأمة. ومع انتشار الإسلام مع حركة الفتح الإسلامى دخلت عناصر بشـرية جديدة أسمهت فى إثراء الحضارة الإسـلامية وسـاعدت فى تطورها، وسواء كانت هذه العناصر مشرقية أو مغربية أفريقية أو آسيوية فقد ظلت الحضارة الإسلامية حافظة لأصولها الأولى التى ميزتها عن غيرها من حضارات الدنيا.

والحضـارة الإسـلامية بنظمها التى نشـأت وتطورت فى كنفهـا لم تكن حضارة متعالية متغطرسـة على غيرها من الحضارات، فقد اقتبس المسلمون ما وجدوه ملائما ونافعا لهم، وطوروا ما عرفوه من نظم أو أساليب حياتية فى البلاد المفتوحة، وهم فى ذات الوقت أفسحوا للمسلمين جميعا المجال لكى يضيفوا ويطوروا فى تلك الحضارة، كما أنهم أعطوا الفرصة لغير المسلمين فى الإسهام معهم، فكان منهم الأطباء والمترجمون

والكثيرون ممن عملوا جنبا إلى جنب مع العلماء والمفكرين المسلمين، وحظوا بالتقدير من حكام المسلمين وخلفائهم.

ومع أن الحضارة الإسلامية تستمد أصولها من مصادر متنوعة تتفق فيها مع الحضارات الأخرى، كالآثار والنقوش والكتابات التى تركها الأقدمون، إلا أنها تتميز وتتوحد بين تلك الحضارات باستقاء مقوماتها الأساسية من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهذا ما يعطيها مكانتها الفريدة بين حضارات الأمم والشعوب المختلفة.

المصادر المكتوبة

المصادر المكتوبة كثيرة ومتنوعة، منها الكتب المدونة والمخطوطات والوثائق الرسمية التى تحويها الأرشيفات الرسمية، والرسائل المتبادلة بين الأمراء والحكام والخلفاء، والاتفاقات والمعاهدات، ومنها أيضا أوراق البردى.

وتعد المصادر المكتوبة وخاصة الوثائق والمعاهدات والاتفاقات وأوراق البردى من الأصول الأولى لدراسة الجوانب الاقتصادية والإدارية فى الحضارة الإسلامية والنظم التى ظهرت فى الدولة الإسلامية على امتداد أطرافها، إلا أن بعض هذه المصادر- مع الأسف- قليلة ونادرة، ضاع معظمها وفُقِدَ خلال الفترات التاريخية المتعاقبة التى تعرضت فيها الدولة الإسلامية لمحن خطيرة مثل غزو المغول لبغداد، أو حريق الفسطاط يوم طغت المصلحة الشخصية على الواجب الوطنى. كما أن معظم تلك الوثائق تعرض للحريق أو للإتلاف حين تعرضت بعض دواوين الدولة الإسلامية للحريق، فقد تعرض كل من ديوان الكوفة وديوان الفسطاط للحريق مما أدى إلى ضياع ما كان بهما من وثائق هامة [1].

وتتزايد أهمية الوثائق البردية العربية لما تحتويه من معلومات هامة تختص بالنظم الإدارية والاجتماعية فى الدولة الإسلامية بصفة عامة والنظم الاقتصادية والمالية والاجتماعية فى مصر بصفة خاصة.

وقد اهتم المستشرقون بشكل خاص بالبرديات العربية مصدرا من مصادر دراسة النظم الإسلامية وأولوها عناية فائقة، ومن أهمهم جروهمان Grohman الذى صنف

(١) عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب. ص ١٣٦.

البرديـات العربية بدار الكتب ووضعها بين أيدى الباحثين لتكون مصدرا يُعتمد عليه فى ذلك الجانب الهام من جوانب الحضارة الإسلامية؛ وظهور البرديات يجيب على التسـاؤل الذى ظل مطروحا بين المستشـرقين عن وجود أرشـيفات رسمية فى الدولة الإسـلامية، كما أن هذه البرديات وخاصة ما وجد منها فى مصر تقدم معلومات تفيد كتابة تاريخ المجتمع الإسـلامى وخاصة أن المعلومـات الخاصة بالطبقات الدنيا فى المجتمـع قليلة ونادرة بالمقارنة مع ما يوجد من معلومات عن الحكام والأمراء والقواد والعلماء الذين يمثلون الطبقات العليا فى المجتمع ذاته.

والبرديات العربية كثيرة ومنتشـرة فى مكتبات الدنيا، ومما هو جدير بالإشارة أن أكـبر المجموعات البردية العربية توجد فى مكتبات النمسـا التى تحتفظ وحدها بما يقدر بعشرة آلاف بردية عربية [1].

وتمثـل المصادر المكتوبة فكر المسـلمين فى عصوره المختلفـة فلم يتركوا مجالا من مجالات العلم إلا طرقوه وألفوا فيه وقدموا دراسات وافية تعد من الأصول الأولى للعلوم والمعرفة الإنسانية.

كتب المسـلمون فى الفقه والتفسير واللغة والتصوف، كما ألفوا فى العلوم والكيمياء والطب، وكتبوا فى الموسيقا والغناء والشعر والنثر والجغرافيا، جادلوا وعارضوا وردوا الشـبهات عن الإسلام، وأسسـوا علم الاجتماع، كما سجلوا الأحداث ودونوا الأخبار ووضعوا أسس علم التاريخ.

والكتب التاريخية كثيرة ومتنوعة، وتنقسم إلى فروع عديدة، منها الكتب الموسوعية، ومنهـا الكتب المتخصصة، ومنها ما يعـالج النظم والقوانين. ورغـم التفريعات التى يضمها التاريخ كما كتبه المسـلمون، التاريخ العام ويمثله فى المؤرخين المسلمين بشكل عام الطبرى وابن الأثير، والتاريخ المحلى وكتب فيه كثيرون من بينهم ابن القلانسى وابن الشـحنة وابن العديم، أما كتب النظم والقوانين فمن أشـهرها كتابات ابن سلام وقدامة بن جعفر والماوردى والأسعد بن مماتى والقلقشندى.

---

(١) عبد المنعم ماجد: الذيل على مقدمة دراسة التاريخ الإسلامى ص ٤٠.

والكتابة التاريخية تعتبر أم الكتابات، ذلك أن الدارس يستطيع الحصول على معلومات قيمة وأساسية من مطالعتها والإفادة منها، وقد أكد كثير من الكتاب على أهمية الكتابة التاريخية. فيقول القلقشندى: «اعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له وقد أكثر الناس فيه من التصنيف على اختلاف فنونه ما بين مختصر ومبسوط، من مقتصر على فن ومستوعب لفنون، وفى خلال تلك المصنفات نوادر غريبة ولطائف عجيبة لا يحصل الوقوف عليها إلا بعد استيعابها بالمطالعة، كما لا يقع الظفر بالجوهر فى المعدن إلا بعد عمل كثير يحصل فى خلالها على بغيته، فإذا التقطت الجواهر من المعدن سهل تناولها لمريدها»[1].

وللمسلمين أعمال هامة فى السِّيَر والتراجم اشتهر منها كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد، وأُسدُ الغابة لابن الأثير، والإصابة فى أخبار الصحابة لابن حجر العسقلانى، ووفيات الأعيان لابن خلكان؛ وكذلك كتابات الفوطى والكتبى والصفدى والسخاوى وغيرهم.

كما كانت المعاجم الجغرافية والمعاجم الأدبية وتقاويم البلدان وكتب المسالك والممالك دائما مصادر أساسية فى دراسة الحضارة الإسلامية وأنظمتها.

ومن المصادر الأساسية أيضا فى دراسة الحضارة الإسلامية وما سجله الرحالة المسلمون من مشاهدات ومعلومات جمعوها خلال أسفارهم وترحالهم فى بلاد الإسلام وفى دار الحرب وما يقدم مادة علمية قيمة تفيد فى دراسة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

إن ما كتب اليلاذرى والإصطخرى والمقدسى وابن خرداذبة والبلخى وابن حوقل والمسعودى واليعقوبى وابن جبير وابن بطوطة يقدم صورا صادقة ومختلفة الأبعاد والانطباعات عن أحوال الناس وطرق معيشتهم ونظمهم السياسية وأوضاعهم الاجتماعية وأحوالهم الاقتصادية وكلها يكمل بعضها بعضا.

فيذكر اليعقوبى أنه طاف الممالك الإسلامية كلها فنزل أرمينية وورد خراسان ومصر والمغرب وسافر إلى الهند، وكلما لقى رجلا سأله عن وطنه ومصره وعن زرعه،

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١ ص ٤١٢.

ماهو وساكنيه من هم عرب أو عجم، وعن شرب أهله ولباسهم ودياناتهم ومقالاتهم ثم يثبت ذلك ويدوّنه، وهذا يوضح منهج الرحالة والجغرافيين المسلمين فى تدوين الأخبار وتسجيل الأحداث.

ويحدثنا المسعودى فى كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر: أنه قطع القفار تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر، وأنه زار بلاد السند والهند والصين والزنج، وتقحم الشرق والغرب فتارة بأقصى خراسان وتارة بوسائط أرمينيا وأذربيجان والران والبلقان، وطورا بالعراق، وطوراً بالشام. وهذا يدل على تحمل الرحالة للمشاق والأخطار من أجل أن يقدم لنا المعلومة الصحيحة عن شعوب المناطق وعاداتهم، وأحوالهم وأوجه إنجازاتهم وتطورها [1].

وأما كتابات المسلمين فى العلوم فهى الأسس التى قامت عليها النهضة الأوروبية الحديثة، فلقد سجلوا مشاهداتهم وأجروا تجاربهم فى الكيمياء والصيدلة والتعدين والنبات والبيطرة والفيزياء، وما ترك هؤلاء العلماء أمثال ابن سينا والرازى والقزوينى وابن البيطار والدميرى وابن الهيثم وغيرهم يعد أساساً من الأسس التي قامت عليها العلوم التجريبيّة الحديثة، كذلك كتب المسلمون فى الطب وأقاموا البيمارستانات وشخصوا الأمراض وحددوا العلاج والدواء.

ولكتب الأدب والشعر مكانة هامة كمصدر من مصادر دراسة حضارة الأمم، فإن آداب الأمم كما يصورها شعرا نبض شعرائها ونثرا أحاسيس كتابها تحوى سجلا هائلا للمعلومات التى تفيد الدارسين. والأدب العربى ثرى غاية الثراء بإنتاج أدبائه عبر كل العصور مما يتيح للدارسين مادة علمية وفيرة تثرى بحوثهم فى حياة الأمم وتاريخها وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

لقد سجل المسلمون كما فعل غيرهم من الأمم تخليدا للأحداث الهامة فى حياتهم، وتغنوا بانتصاراتهم، ومن ذلك كان فتح القدس على يدى صلاح الدين وجيوش مصر والشام والعراق الذى ألهب قريحة الشعراء والأدباء المسلمين فخلدوا هذا النصر شعرا تزدان به كتب المعاصرين لتلك الفترة التاريخية.

---

(١) المسعودى: مروج الذهب جـ١ ص ١٠.

فقد ذكر القاضى الفاضل رئيس ديوان الإنشاء والعماد الكاتب السكرتير الخاص لصلاح الدين الأيوبى وغيرهم من مؤرخى ذلك العصر القصائد التى تفتقت عنها قريحة شعراء المسلمين بذلك النصر المؤزر على الصليبيين الذين دخلوا أرض الإسلام يوم تنازعتها الأهواء المذهبية، والاختلافات الدينية بشكل سمح لهم أن يدهموها من شمالها حتى بيت المقدس، بل أكثر من ذلك أن يقيموا فيها إماراتهم اللاتينية لفترة قاربت القرنين من الزمان، فلما كان نصر حطين، ولما كان عود بيت المقدس للمسلمين سجل الكتاب غبطتهم بذلك النصر شعرا ونثرا، فمما كتبه العماد الكاتب:

«حتى إذا أسفر الصباح، وسفر الصباح، وفجر الفجر أنهار النهار، ونفر النفير غراب الغبار، وانتبهت فى الجفون الصوارم، والتهبت فى الضوامر الضوارم، وتيقظت الأوتار، وتغيظت النار، وسل الغار، وسلب القرار، خرج الجاليشية تحرق بنيران العضال أهل النار، ورنت القسى وغنت الأوتار، ورقصت مران المراد، لجلاء عرائس الجلاد، وبرزت البيض فى ملائها فى الملأ عارية، ورتعت السمر لكلئها من الكلى راعية»[1].

ومن شعر القاضى الفاضل:

ماضيات على الدوام دوام ... هن فى النصر نجدة الإسلام
فى يمين السلطان إن جردتها ... أشبهتها صواعق فى غمام
تنثر الهام كالحروف فما أشبه ... هذى السيوف بالأقلام
فى محاريب حربه البيض صلت ... وركوع الظبى سجود الهام[2]

المصادر الأثرية

تشمل المصادر الأثرية كل ما ترك المسلمون من آثار تتمثل فى مساجدهم ومكتباتهم وخاناتهم وربطهم ومدنهم وأسوارها وقلاعها، والعملة على اختلاف أنواعها، والطراز، والأسلحة بكافة أشكالها ومختلف أنواعها إلى غير ذلك مما تحفل به متاحف الدنيا من آثار ومخلفات تركتها يد الفنان المسلم.

---

(١) العماد الكاتب الأصفهانى: الفتح القدسى. ص ص ٧٨- ٧٩.

(٢) الفتح بن على البندارى: سنا البرق الشامى. ص ٣٣١.

وتعتبر الآثار الإسلامية من المصادر المعينة لدراسة الحضارة الإسلامية. وللمسلمين آثار مبنية تنتشر فى قارات الدنيا، فمن الأندلس غربا إلى شبه القارة الهندية شرقا تقف الآثار الإسلامية شامخة تقدم الدليل الحى على سمو حضارة الإسلام وارتقائها.

والمسجد هو نقطة البدء فى دراسة الآثار الإسلامية، فهو المصدر الذى استقت منه العمارة الإسلامية أصولها، ومن المسجد امتد العمران لتقام العواصم الإسلامية بمنشآتها ومؤسساتها المختلفة، وتعكس العمارة الإسلامية مستويات حضارية مختلفة تعبر عن العصور التى تمثلها.

والمساجد الإسلامية هى المراكز الحضارية الأولى التى انبثقت منها إشعاعات الدين وإشعاعات الحضارة، فحول المسجد الأول فى مصر أقيمت العاصمة الإسلامية الأولى الفسطاط، وبالمساجد تحولت مدن كبيرة مثل الإسكندرية ودمشق إلى مدن إسلامية، وفى المسجد كان المسلمون يناقشون أمورهم الدينية والدنيوية، ومع المسجد أقيمت المدارس التى كان لها دور هام فى التعليم الإسلامى، وهى تمثل مصدرا من المصادر الهامة لدراسة الحضارة الإسلامية. وجدير بالإشارة أن أوروبا أقامت جامعاتها ومعاهدها العلمية على غرار المدرسة فى الإسلام.

ومن الآثار الهامة لدراسة الحضارة الإسلامية تتصدر المدن التى شيدها المسلمون بطرزها المعمارية المختلفة سواء ما أقيم منها أصلا كمدينة إسلامية، أو ما تحول منها بإقامة المساجد فيها إلى مدن إسلامية بعد الفتح، ذلك أن المدن بأسوارها وقلاعها ومكتباتها وأسواقها وحماماتها وربطها وخاناتها وفنادقها وبيمارستاناتها ووكالاتها وحدائقها تعين على تفهم المستويات الحضارية المختلفة والمرتبطة بالعصور التاريخية المتعاقبة تقدما أو انحطاطا، تطورا أو ركودا. فالقاهرة تمثل الطرز المعمارية الفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية، والأزهر الذى أسسه الفاطميون كمسجد ثم تحول إلى مدرسة ومركز للفكر الشيعى تحول بعد زوال الحكم الفاطمى ليكون مدرسة وجامعا لأهل السنة وجامعة للعلوم والآداب يؤرخ لمصر ويحكى قصة تطورها الحضارى، فقد كان ولا يزال شاهد عيان للأحداث التى تعيشها مصر، فقد تابع أحداث تاريخها وعصور ازدهارها وأوقات محنها وأزماتها وعاصر صمودها وكفاحها وانتصاراتها وأعيادها.

والمنشآت المعمارية كلها سواء تمثلت فى القلاع والأسوار والأسواق أو غيرها تقدم مَعِينًا لا ينضبُ من المعلومات والبيانات والأدلة التى تقدمها نقوشها وكتاباتها مما لا يستغنى عنه دارس لتاريخ الحضارة والنظم الإسلامية.

والعملة والمسكوكات والنقود من المصادر الأثرية الأصلية فى دراسة نظم وحضارة الإسلام، ولقد زادت أهميتها حتى أصبحت علما بذاته هو علم النميات Numismatics. والعملة تعكس المستوى الاقتصادى للدولة التى أصدرتها وللعصر الذى تمثله، كما أن النقوش المضروبة عليها تتضمن ألقاب الملوك والخلفاء والسلاطين وتاريخ إصدارها، وهى بهذا تقدم سجلا لحكم أولئك الحكام وفى بعض الأحيان تعكس المذهب الدينى الذى يمثله الحاكم [1].

وتعين السكة على تصحيح بعض المعلومات الخاطئة أو تأكيد الصحيح منها، كما تبين مدى التوسع الاقتصادى والانتشار التجارى فى عصر من العصور، فحين اكتشفت عملة إسلامية فى شبه الجزيرة الإسكندنافية أكد الباحثون بناء على ذلك الكشف وصول تجار المسلمين فى العصور الوسطى إلى تلك البقاع.

ولقد عرف المسلمون النقود والعملة منذ عصر الخلفاء الراشدين، فيذكر المقريزى أن الفاروق رضى الله عنه ضرب الدراهم على نقش الكسروية [2]. وكان العصر الأموى هو العصر الذى شهد تعريب الدواوين الإسلامية، وذلك على عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذى ضرب عملة عربية كانت من الفضة الخالصة، وذلك عام ٧٧ هـ/ ٦٩٦ م [3]، وفى هذا يذكر القلقشندى أن الناس كانوا قبل ذلك يتعاملون بدراهم الفرس والروم، ولما ضربها عبد الملك كتب إلى الحجاج بالعراق بإقامة رسم ذلك الضرب فضرب الدراهم ونقش عليها ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] إلى آخر السورة فسميت الدراهم الأحدية، وكرهها الناس لنقش القرآن الكريم عليها مع أنه قد يحملها المحدث فسميت الدراهم المكروهة.

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون المسلمون. ص ١٥٥، وانظر رأفت النبراوى: السكة الإسلامية فى مصر الإسلامية. القاهرة ١٩٩٣.

(٢) المقريزى: إغاثة الأمة. ص ٥١.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى. جـ ١ ص ٤٢٥.

وإصدار العملة الإسلامية يوضح مدى حرص الدولة الإسلامية على استقلال اقتصادها، وقد اهتم المسلمون بنقاء العملة فحرص أحمد بن طولون على خلوص الذهب، بل كان كما يذكر القلقشندى أول من شدد فى خلوص الذهب، كما حرص المسلمون على دقة عيار العملة وكان أول من شدد فى العيار يوسف بن ابراهيم، وكان يُنزل أشد أنواع العقاب بمن ينقص الوزن فى الدراهم المضروبة.

وتختلف عبرة الدنانير من عصر إلى عصر؛ كما أنها تتأثر بالأوضاع الاقتصادية للدولة، فيقول القلقشندى، إن مصر شهدت فى عصر السلطان برقوق نوعين من المسكوكات الأول يضرب بالديار المصرية حيث دار الضرب بالإسكندرية والتى كان يضرب بها الدنانير والفلوس، والثانى يأتى إليها من الممالك، ويقصد بها الدوكات، وهذا الاصطلاح فى الحقيقة لا يطلق إلا على العملة المضروبة فى البندقية [1]. وذكر أن الذهب كان يُتعامل به، والعبرة فى وزن الدنانير بوزنها ووزنها بالمثاقيل، وضابطها أن كل سبعة مثاقيل زنتها عشرة دراهم، والمثقال معتبر بأربعة وعشرين قيراطا وقدر بثنتين وسبعين حبة شعير من الشعير الوسط باتفاق العلماء خلافا لابن حزم فإنه قدره بأربع وثمانين حبة على أن المثقال لم يتغير وزنه فى الجاهلية ولا الإسلام [2].

ويمكن للدارس أن يستنبط من دراسة العملة والمسكوكات استقلال الإقليم أو تبعيته كما يستطيع أن يرسم الملامح الاقتصادية للعصر الذى تمثله هذه العملة أو تلك.

ويخبرنا القلقشندى أن نائب السلطنة بالإسكندرية فى عهد الدولة الأشرفية ضرب دنانير زنة كل دينار منها مثقال على أحد الوجهين منه «محمد رسول الله» وعلى الوجه الآخر «ضرب بالإسكندرية فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عز نصره» ثم أمسك عن ذلك فلم تكثر هذه الدنانير [3].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣، ص ٤٣٧.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٣٦- المقريزى. إغاثة الأمة. ص ٥٠. عن دار الضرب قارن: رأفت النبراوى: السكة الإسلامية فى مصر. ص ٣٣.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى. جـ ٣ ص ٤٣٦.

وفى عهد السلطان فرج بن برقوق ضرب الأمير يلبغا السالمى استادار العالية فى الدولة الناصرية دنانير زنة كل واحد منها مثقال فى وسط سكته دائرة مكتوب عليها فرج، وربما كان زنته مثقالا ونصف مثقال أو مثقالين، وربما بضعف أو ربع مثقال والغالب فيها نقص أوزانها، وربما كان ذلك نظير كلفة ضربها.

كما ضربت فى عهده الدنانير على زنة الدنانير الأفرنتية فى أحد الوجهين «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وفى الآخر اسم السلطان. وعرفت هذه الدنانير بالناصرية، وكثر التعامل بها ومن ثم انتشر تداولها.

ولتقى الدين المقريزى آراء كثيرة حول العملة التى يذكر مدى جودتها فى عصور الرخاء الاقتصادى ومستوى رداءتها فى عصور المحن والاضطراب وهو يوضح أن النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة من التداول، وكانت الفلوس نقدا رديئا بالنسبة للدينار أو الدراهم فطردتها من السوق.

وقد أدرك المقريزى الدراهم الكاملية التى يتعامل بها الناس، وكانت ثلثاها من الفضة والثلث من النحاس، يضاف إلى المائة من الفضة الخالصة خمسون درهما من النحاس [1].

ومن المفيد أن نشير إلى الدينار الجيشى الذى يستعمله أهل ديوان الجيش فى عبرة الإقطاعات، وذلك بأن يجعلوا لكل إقطاع عبرة دنانير معينة، وقد كان دينار الأجناد من الترك والأكراد والتركمان دينارا كاملا، والكنانية والعساقلة ومن يجرى مجراهم نصف دينار، أما العربان فدينارهم ثمن دينار، وفى عرف الناس ثلاثة عشر درهما ونصف، وهو على أية حال مسمى لا حقيقة له مثلها مثل الدراهم السوداء [2].

واهتم كثير من المؤرخين والكتاب بالمسكوكات والعملة من أهمهم أبى يوسف صاحب كتاب الخراج، وابن سلام صاحب كتاب الأموال والماوردى فى الأحكام السلطانية، والقلقشندى فى موسوعته الكبرى صبح الأعشى والمقريزى فى رسالته المتخصصة إغاثة الأمة بكشف الغمة وغيرهم، وهذه المؤلفات تؤكد أهمية المسكوكات

---

(١) المقريزى. إغاثة الأمة. ص ٦٦.

(٢) القلقشندى. صبح الأعشى. جـ ٣ ص ٤٣٨، ٤٣٩.

بكافة أنواعها وأقسامها وعلى مختلف العصور التى ضربت فيها، وعلى أنها تسهم بدور هام فى دراسة النظم الاقتصادية الإسلامية بالإضافة إلى أنها سجلات تؤرخ للأحداث العامة وأحوال المجتمع.

ويعد الطراز من المصادر التى تفيد فى دراسة الحضارة الإسلامية، ويعنى نقش اسم السلطان على ما ينسج ويرقم من الكسوة والطرز المختلفة المتخذة من الحرير والذهب بلون مخالف للون القماش، وذلك لتصير الثياب والطرز السلطانية مميزة عن غيرها، ويذكر القلقشندى أن ذلك تنويه بقدر لابسها من السلطان أو من يشرفه لبسها عند ولاية وظيفة أو إنعام، وكان للطراز دار خاصة تعرف بدار الطراز بالإسكندرية.

ومن أنواع الطراز الغاشية والمظلة والرقبة والأعلام والخيام والفساطيط. أما الغاشية فهى غاشية السرج من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها من الذهب تحمل بين يدى السلطان عند الركوب فى المواكب والحفلات، وأما المظلة فهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طير مطلية بالذهب وهى من بقايا الدولة الفاطمية، وأما الرقبة فتجعل على رقبة الفرس من أطلس أصفر محلاة بالذهب. وأما الأعلام فهى الرايات التى تحمل ألقاب السلطان واسمه، ومنها العصابة والجاليش والسناجق. ومما يذكر أن أول من حمل السنجق على رأسه من الملوك فى ركوبه غازى ابن زنكى أخو السلطان نور الدين محمود. كذلك كانت الخيام والفساطيط تصنع من القطن الشامى الملون بالأبيض والأحمر والأزرق وغيرها، وكانت الخيام تنوب مناب القصور فى الإقامة [1]. ويفيد الدارسون من دراسة ما يصل إليهم من الطراز؛ وذلك باستخدام النقوش والكتابات وتفسير العلامات التى يحملها مما يلقى الأضواء على العصر الذى ينتمى إليه.

هذه وغيرها من المصادر تعين الباحثين على الوقوف على أبعاد المنجزات الفكرية المادية والمعنوية للمسلمين على امتداد عصور الدولة الإسلامية، وهى تقف شاهدة على قدرة النظم الإسلامية فى إطار الإسلام على صياغة نظام سياسى اقتصادى اجتماعى فريد.

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٤ ص ٧: ٩.